المساواة

(٣)

العبودية والرق

من عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض : تجعلُ الأكمة الجرداء قرب البحر الزاخر ، وخضرة الخمائل وخصب الواحات وراء رمال الصحارى وقحولة القفار . وحيال الدروة الارستوقراطية يزينها تاجُ الملكية تخفرُ البطاح لسيل السودية الجرّاف حيثُ تتريفُ السجايا وتتلاشى المكرمات . ما أقامت ارتفاعاً الاّ أوسمت تخومهُ تجويفاً ، وما جادت بنابهٍ الاّ بلّتْ بمعتوهٍ ، ولا سلّمتْ بوليدٍ الاّ ودّعت بصريع

ألا إنما الحياة غنية بالمال والذكاء والكرم والصلاح والحبّ والجمال والفخار ، على ان في كفتها الاخرى ما يعادل الاولى من شقاء وفقر وخمول وشح وكره وانحطاط . كأنها مرغمةٌ على حفظ النظام في توازنها اذا هي أسرفت في نقطة تعقّبت إسرافها بالتلافي في ما يحاذيها . فحيث يمتدُّ الرخاء تنتشرُ التعاسة ، وحيث يكثر الخير يقلُّ ، وحيث يتغلّبُ قومٌ ينحدر قومٌ . هنا القصور والصروح والاواوين وهناك الاكواخ والخصاص والزرائب . والصحة ذلها قتلٌ متتابع ، وكأنّ نفس الطفل البريء معملُ هلاكٍ يفتكُ بمكروبات لو انتشرت في جماعة لأودت بهم

ترى ، هل امتداد الكون المبصر مسافةٌ محدودة إن نحن رأيناها لا تحدّ فلقصر النظر ، وقواهُ كيةٌ ممدودة ان نحن زعمناها لا تُمدّ فلضيق الادراك ؟ هذا سؤال يخرجنا من الاجتماع والتاريخ لتدخلنا محاولةُ الجواب عنهُ في الفلسفة واللاهوت ، وما نحن منهُ الاّ في دائرة تبتدىء ضدها الابحاث حيث تنتهي

***

كتاب « مانو » هو أحد كتب الهند المقدسة وقد حوى شرح مذهب البراهمة وتاريخ مدنية الآريين منذ نشأتها ، فجاء فيهِ ان اصل العبيد سبعة : أسير الحرب ، ومعدم رضخ لمن يكفل معاشهُ ، وابن العبدة المولود في بيت المولى ،

والفرد مهدى هدية أو مبيعاً بيعاً ، والمنتقل بالارث من الوالد الى الولد ، والمستعبد عقوبة لهُ على جناية ارتكبها ، والمستعبد لعجزهِ عن تأدية دين او ضريبة او غرامة. وسواء ألمَّ هذا الاحصاء بكل الاصول أو أغفل بعضها فالعبودية قديمة كالحرب والحرب من خواص الخليقة . لقد حاذت طبقة العبيد طبقة الاحرار منذ فجر العمران وكانها في تلك المحاذاة تقول :

هُ جيرة الاحياء أما جوارهم فدانٍ ، واما الملتقى فبعيدُ

وكيف « يلتقي » اثنان يملك أحدهما الآخر ملكاً لا يقصرُ على تضييق الحرية الشخصية شأن الرجل مع المرأة والمؤدب مع التلميذ ، وانما هو حذفها ليصير العبد آلة خضوع وعمل تحصى من متاع المالك مع المواشي وما شاكلها

مأساةٌ دهرية يتألم لذكرها القلب الشفيق ، بيد ان المؤرخ المفكر يراها فجراً محمصحصاً في ليل الهمجية ، واول بادرة من بوادر الرفق المدرك وجوب الاحتفاظ بحياة المغلوب والحرص عليها . هي دليل التقدم وان نسبها هربرت سبنسر الى الشبع بتقريره ان اول العبيد هم اسرى الحرب وقد جرت العادة بان يأكلهم الغالب في ولائم النصر . وانهُ عندما كثر تعددهم أُجِّل قتل بعضهم للتلذذ بلحمائهم المشوية في وليمة آتية ليصير النصر الواحد نصرين. فاستخدموهم خلال هذه الفترة فانتهوا الحال الى ان حياة الاسير اتبع للغالب من موتهِ

هب ان الابقاء على الاسرى نتج عن تدبير اقتصادي فهو يظلُّ كبير الاهمية لإثباتهِ ان النوع ، حتى في تلك البداوة القصوى ، ذو نظرة صائبة وارادة قوية تمكنهُ من ممارسة الابيقورية قبل ولادة اسلاف ابيقورس ، فيضحي اللذة الصغيرة للحصول على لذة أعظم ! . . واهميتهُ الكبرى في ايجاد العبودية وهي الفارق الاول للدرجات الاجتماعية ، والمرتبة الاولى لتقسيم العمل الذي تقوم عليهِ دعائم الحضارة. فلولا اناطة الاعمال الدنيا باولئك القوم ما تفرَّغ المحارب لبسط سلطانهِ ولا أبدع أعوانهُ ما تستلزمهُ فنون الحرب وتؤدي اليهِ من عمل زراعيّ وصناعي واقتصادي وسياسي . ولولا ذلك التقسيم وهذا الابداع ما ظهرت الحقوق والواجبات ، ولا كانت النظُم ، ولا توصل البشر الى تخزين قوة وقدرة وحذق يستحيلُ وجود مثلها عند العشائر الاولى

لقد عرفت العبودية شعوبُ الشرق قاطبةً من الهند والصين الى مصر فينيقية فآشور فالفرس الذين ضموا تحت لوائهم أمم اسيا الغربية فاختبروا جميع صنوف العبودية في الحقول والمنازل والايوانات منذ ايام بابل الى عهد اليونان . وحالة العبيد متماثلة في كل مكان يتصرفُ السيد بهم بيعاً وحياةً وتعذيباً وموتاً ، انما يختلفُ هذا التصرف باختلاف فطرة الشعوب واستعدادها . فبينا حالتهم في الهند على أسوإ ما يكون اذا بهم في الصين على حناء نسبي لا ينظر اليهم كأشياء او آلات ، بل كأناس يحميهم القانون فيبقي حياتهم في مأمنٍ من الخطر وأعضاءهم سالمة من التشويه . وليس في تاريخهم ثورة واحدة على تجمع مئات الالوف منهم حتى اضطرت الحكومة غير مرة الى اعتاقهم بالجملة ، طغمة بعد طغمة ، لتفسح مكاناً للمستجدين من اسرى الحروب والجناة والعصاة الثائرين على الحكم الاعلى. ومع انهم ملك الامة المشاع فهم يعيشون في العائلة كوضيع أفرادها ، ولكلّ عبد ان يعتق بعد سن السبعين ولكنّ كثيرين كانوا يأبون الحرية لتعلقهم بعواليهم . أما في منشوريا فلم يستعملوا إلا للزينة والابهة في الاعياد القومية والاحتفالات الرسمية . ثم تدرجت العبودية الى الرق ، فالعمل الحرّ ، فكان التطور الاجتماعي في الصين غير متخلف عنهُ في الغرب

أتصدق ان اليهود « شعب الله الخاص » كانوا يمتلكون بعضهم بعضاً ؟ الشريعة تبيح لهم ان يستعبدوا اخاهم اليهودي ستة أعوام اما غير اليهودي فعبدٌ حتى الموت . ولا يفهم ما ورد في انجيل يوحنا قولهم للمسيح « نحن لم نستعبد لاحد قط » وهم خاضعون يومذاك للاحتلال الروماني ، وقد بيعوا في أسواق أورشليم ، واستعبد سلفنصر عشرة اسباط منهم ، وظلّ سبطان آخران في قيود اهل بابل سبعين عاماً ، وقد جاهروا في كتاباتهم بأنهم استعبدوا سبع مرات في ارض الميلاد . ومن يجهل بيع عيسو بكوريتهُ ليعقوب بأكلة عدس ، أي بيع كل حقوقه وقبول العبودية لذراريه ؟ ولكنّ العرب الذين ينتسبون الى عيسو كادوا يمحون بسيادتهم وعظمتهم هفوة السلف الجائع . وقد باع بنو يعقوب أخاهم يوسف لتجار وباعهُ هؤلاء في مصر فخدمها في السنين الجوائح ، وجرّ اليها ذووهُ فانتهى بهم الامر الى الرقّ ولم يكن ليطلق سراحهم لولا الضربات العشر الدائمة الصيت. على ان العبودية

عندهم اخفّ منها عند غيرهم ، ترى بين العبد والمولى تبادل امانة ورعاية يحفظان البيت سوياً ، وللعبد ان يتزوج وينشىء عائلة وحريتهُ ميسورة بالمال . إن قتلهُ مولاهُ يقتل ، وان جرحهُ اطلقهُ . فاذا انقضت السنة السادسة ورفض ان يتحرّر قُدّم الى قضاة الشعب فثقبوا اذنهُ عند باب سيده . ولقد كان ثقب الاذان رمزاً الى العبودية عند شعوب كثيرة . أفتتحين بعد هذا ، يا سيداتي ، إذا انا اذريتُ ما يشعُّ في آذانكنّ من فرائد الدرّ والجوهر وما تهدّل منها من الحجار الكريمة وغير الكريمة لأحدّق في ذلك الثقب الذي يشوّه اذنيّ أنا الاخرى ، وان كفيتهُ عار الاقراط . اتأمّلهُ فيكنّ وألمهُ في مبتسمة كئيبة ...

***

حمل الفينيقيون الى اليونان نظام العبودية مع ما حلوهُ من الانظمة والعادات فجروا عليهِ وكان العبيد عندهم انواعاً : نساء لخدمة البيت ، ورجالاً يفلحون ويزرعون ويخدمون الجيش ويأتون جميع الاعمال الخشنة ، وصبية متأنقين يكرمون الضيوف ، ويعدّون المركبات ، ويرافقون ابن مولاهم في تنزههِ وجولاتهِ ويشاطرونهُ دروسهُ والعابهُ ، كأنهم المماليك الصغار في بعض البيوت الشرقية . عوملوا برفق فاحبوا مواليهم ان غاب احدهم يوماً تألموا لفراقهِ وانتظروهُ باكين ، وان عاد اقبلوا يلثمون يديهِ ووجههُ فرحين . واذا اكتسبوا ثقتهُ بحسن سلوكهم ورجاحة عقلهم اطلق يدهم في مالهِ وشؤونهِ وأناطهم عندهُ مكانة . قد يكون سبب ذلك ان اليونان كانوا يقدرون الاعمال اليدوية ، حتى ان هوميروس ذكر العمال على مقربةٍ من الابطال وقال ان الحدادين والمهندسين والنجارين كانوا يدعون مع الاطباء والعرافين والشعراء الى ضيافة الملوك . وكان ابناء الاسيرات احراراً مثل تويسر المولود من اسيرة لم يكن من فرق بينهُ وبين اخيهِ اجاكس (المولود من حرّة) ابن تلامون ملك أجين . ولا عجب والملوك والملكات كل يوم عرضة للاسر والاستعباد . مقدورٌ لم ينجُ منهُ ولا الآلهة اذ ان البشر اسروا ابولون ونبطون وقولكان ومارس فامتثل هؤلاء الآلهة وخدموا صامتين حتى رفقت بهم يدُ القدَر

اما الاسبارطيون فطبعوا العبودية بطابع شدتهم . العبيد هنا ملك

الجمهور يلبسون جلود الحيوانات ويسخّرون لايفاء الاعمال بصرامة عسكرية، ويُسكَرون الى درجة العربدة وفقد الشعور ليرى الاحرار كم يحط الشراب من قدر الشارب فيعرضون عن الخمر ويأنفونها. نحن نضحكنا حكاية جحا الذي أرسل ابنهُ يستقي ماء فاوصاهُ ان لا يكسر الجرة في الطريق وضربهُ ضرباً مبرحاً فاعترض الجار لان الولد عوقب قبل ان يغادر البيت وقبل ان يرتكب الذنب. فاجاب جحا « وما المنفعة من الضرب بعد ان يكسر الجرّة ؟ » كذلك اعتاد اهل اسبارطة ضرب العبيد ضرباً عامًّا كل سنة لا لاثم جنوا وانما ليذكروا دواماً انهم عبيد اقل شيء يهدّدهم الخياط، ويحظر عليهم حتى القوة البدنية فيقتلون القوي منهم او يؤدّي مولاهُ ضريبة لانهُ لم يوقف نموهُ. وكثرة الانتصارات والفتوحات مورد عبودية متدفق كان يضاعف عددهم على عدد الموالي سبعاً احياناً فيفتك بهم باساليب مختلفة تخلصاً من شرهم. وروى ثوسديدس اعظم مؤرخي اليونان ان الموالي سألوا عبيدهم مرة عن الاقلين الاشد بينهم بأساً والاقوى شكيمة ليعتقوهم فقام العبيد بانتخاب ذينك الاقلين وتناولهم السادة فزاروا بهم الهياكل ثم اختفوا ولم يعد يظهر لهم من اثر

وكم من تحالف للعبيد مع اعداء اسبارطة وكم من ثورة جعلت السادة في خطر مقيم. وقد تلظلظوا مرة وكان تهديدهم مخيفاً فاضطر الاحرار الى طلب الهدنة والمساومة مع الزعيم دريماكس. ثم عادوا فاغتالوهُ بعد عقد الاتفاق فاستأنف الثوار هياجهم واقاموا لهُ مذبحاً جعلوا عليهِ هذه الكلمات « الى البطل المحسن ». ويقال ان هيكل افسس يعود تشييدهُ الى اتفاق عقب ثورة بين الموالي والعبيد. بيد ان تلك القلاقل والاضطرابات ودخول العبيد في جميع الاعمال بالتدريج قضت على الجمهوريات اليونانية وهيأت البلاد للفتح الروماني

وما كان اشبه حالتهم عند الرومان بها عند الاسبارطيين فعمدوا الى العصيان والحروب، وكادت حرب اسبارطقس تؤدي إلى خراب روما لولا قتل العبد الزعيم الذي قضى مجدداً على اسم روما المنقوتة

جاء دور التحرير تحت تأثير الفلاسفة فاخذ العبيد يتعاطون جميع اعمال التجارة وفتحت امامهم المراتب السياسية فارتفع بعضهم ارتفاعاً عظيماً مثل نارشيس مستشار الامبراطور كلوديس الذي حرّض على قتل الامبراطورة مساليا. واشتهر

آخرون بالشعر والفلسفة مثل ترانتيوس الشاعر الهزلي ، والشاعر هوراتيو وابكتتس الفيلسوف الرواقي وغيرهم . وكلما تحسنت مكانة العبيد هبطت الدرجات العليا اذ انهم لم يكونوا يطمئنون المساواة واعتادوا ان ينظروا اليها لابدال الادوار فيصيرون هم سادة ويتمنى الموالي لهم عبيداً

والمدهش في كل هذا ان الفلاسفة لم يقبحوا العبودية ولم ينكروها بل اقروها مع ان منهم من ذاق مرارتها كديوجنس الكلبي ، وابكتتس السابق ذكره ، وافلاطون الذي ظل اسيراً في مصر وصقلية حتى فداهُ احد اصدقائهِ . افلاطون هذا كل ما يمتاز بهِ انهُ لم يضرب عبدهُ بيدهِ مباشرةً ، لان الفلسفة والشعر رقيا منهُ النفس ونعتا الشعور بخلاهُ على ان يوكل الى سواهُ تنفيذ العقوبة في مملوكهِ !

***

يوصلنا هبوط روما الى مطلع القرون الوسطى التي تكيفت خلالها الطبقة السفلى تكيفاً خاصاً . لم تلغَ العبودية بل بالعكس بقيت منتشرة في البلدان المختلفة ولها في ليون بفرنسا ، وفي روما بايطاليا ، اسواق عامرة بالتجارة الآدمية من السود والبيض . ومرت العصور فاكتشف كولمبس القارة الاميركية في اواخر القرن الخامس عشر ولم يهمل هذا المورد المالي بل احلهُ محلهُ من الاهمية . ونظم بعد ذلك الاسبان والبرتغاليون المتاجرة بين الانسان تنظيماً دقيقاً بين العالمين

لم تلغَ العبودية انما امتازت القرون الوسطى بشيوع الرق الملازم لنظام الاقطاع في انحاء اوربا . لقد تصايرت العبودية (Slavery, esclavage) والرق(١) (Serfdom, servage) في جميع فصول التاريخ فاختلط معناهما والتبسا في اللغات المختلفة وحسبهما الناس مترادفين لمعنى واحد. اما الفرق بينهما فهو ان العبد يملكهُ شخصٌ وهو لا يملك شيئاً ، واما الرقيق فملك سيد يملكهُ ارضاً مقابل

(١) لم اجد حتى الآن كلمة عربية لهذا النوع من الرق او الاستخدام ولعل سبب ذلك انه لا يكون الا في البلدان الزراعية . وما كان ناشئاً في بلاد السودان ويطلق السودانيون عليه اسم الرق ولكنهم يطلقون اسم الرقيق ايضاً على العبد المشترى . وكان الملاك في لبنان من الامراء والمشايخ ورؤساء الاديرة يسمون الفلاحين المقيمين في املاكهم يسلمون فيها شركاء او مرابعين . وسموا في قصة معاوية مع ابن الزبير عبيداً زعمهم كانوا عبيداً بالفعل

ما يفرضهُ عليهِ من ضريبة وخدمة وطاعة قاصية. العبد ينزعُ من بلده وأهلهِ ويتبعُ سيده المطلق. اما الرقيق فيظلُّ في ديار جدوده وسيادة المولى تحدّدها العادة والمصلحة. اذ ما نفع أرض لا يد تعملُ فيها؟ فمن مصلحة الشريف ان تعمر الارض وتنتج لهُ الخيرات. ومن مصلحة الرقيق ان يشتغل في أرض يحبها ولهُ من نتاجها ما يكفي — ولو بالاجهاد — لإعالة بيتهِ واولاده، فضلاً عن ان الاغارات الخارجية وقلة الامن في تلك الايام كانت تقضي بالانتماء الى سيد عظيم والاحتماء بحماهُ. والرق في ذاتهِ انواع وظلَّ يخفّ بالتدريج خلال الزمن حتى فقد في فرنسا صفتهُ السياسية التي صار مرجعها الى الملك ولم يبق منهُ للاشراف غير الميزة الاجتماعية. ولكنهم ظلوا منطلقين في الظلم والاجحاف فاهتاج الشعب غير مرة وهم يقمعون الهياج بقسوة متناهية. ثم زاد واتسع في المرة الاخيرة ورأى العالم الطبقات الاجتماعية تمتزج وتتساوى على اسقاط العروش، وانهيار جدران البستيل، وقصل اعناق الملوك في ذلك الزلزال الهائل المدعو الثورة الفرنساوية

قضت الثورة على الاسترقاق الذي كان ألغي قبلئذٍ في انجلترا وظلَّ يحذفُ في دولة بعد دولة، وفي مستعمرة بعد مستعمرة الى ان القرن المنصرم، واستفادت امريكا بدروس العالم القديم واختبارها الشخصي فالغتهُ الولايات المتحدة سنة ١٨٦٥ والبرازيل سنة ١٨٨٨. وهتف الكتاب والخطباء ان لطخة العار غسلت عن جبهة الانسانية بفضل الثورة الفرنساوية وهمة مفكري انجلترا

يخيل الينا نحن ابناء اليوم ان تحكّم الانسان بالانسان من خصائص الزمن الخرافي، مع اننا نعلم ان الارواح كانت تحصى في عقود البيع بلبنان مع الغنم والخيل وآلات الفلاحة منذ عهد قريب. وان دولة المماليك المؤلفة من عبيد الامس ارتفعت الى اوج الحكم فكان لها جيش من العبيد الغرباء ثم جاء نابليون الشرق محمد علي باشا فغلبها على امرها، ونظّم جيشاً كبيراً منهُ فرقة او فرق بأكملها من السود النوبيين. وتكاد المتاجرة بزنوج افريقية تكون مشوّهة عصرنا وهي من افظع انواع الاستعباد اذ لا امر، ولا دين، ولا جريمة تجعلها مشروعة، وما هي غير اقتناص البشر للبشر طمعاً بالمال. لولا ان مطاردتها واكتساحها من اشرف ما تفاخر بهِ بريطانيا العظمى

ألم يكن للنصرانية والاسلام من اثر في القلوب لتحملها على الرحمة والعطف؟

لا شك في تأثير الدين ايا كان ، واذا أحصيت العوامل الكبرى كان الدين في مقدمتها لتكييف النفوس . وقد التقى السيد المسيح تلاميذهُ من بين الخاملين ومضى ينادي بالمساواة والغفران وحبّ الاعداء لان الجميع ابناء الله يدعون . وعزّز مذهبهُ العظيم بمثالهِ في حياتهِ الطاهرة . وصار النصارى يترنمون بهذه الاقوال الجميلة مرددينها في الصلوات والاحتفالات ففعلت فعلها وملأت القلوب أملاً وتعزيةً . على ان الدين المسيحي اقرب الى النظريات . وعلى نقيضهِ الاسلام فانهُ نظري وعملي معاً . وجد العبودية عند شعوب سبتهُ فاقتبلها ولكنهُ لطفها ايما تلطيف . وعلى مقربة من تعاليمهِ العالية ونصائحهِ الحكيمة اوصى باليتيم والضعيف والرقيق وكان الطائع الاول النبيّ العربي ذاتهُ الذي بكى عبدهُ الميت كما يبكي الكريم صديقاً عزيزاً . فكانت حالة العبد في دين محمد من احسن حالات امثالهِ . اما الاعتاق والدعوة اليهِ فمن امجد صفحات تاريخ الاسلام

يرمز المصوّرون الى العبودية برسم رجل بائس يرسف في قيودهِ ولو انصفوا ما كان غير المرأة رمزاً . الرجل عبدٌ مرةً وهي عبدة مرات . قيمة الرجل في استقلالهِ النفسي وطموحهِ الى بعيد الغايات . والمرأة ان هي ابدت ميلاً الى الانعتاق من الاوهام القديمة والتحرير من العادات المتحجرة نُظر اليها كفرد شاذ او كخيال في دوائر الرؤيا . ذلك لانهم اعتادوا استعبادها ليس بالجور والضغط والتعذيب فقط بل باللطف والتدليل والتحبب . والاّ فاذا تعني هذه الحلى وهذه الجواهر ؟ بل ماذا يعني تغني الشعراء بجمال الوجه وملاحة القوام ؟ النساء المسكينات يتهن دلالاً ان يكنّ محبوبات لجاهلهنّ ، ولو تفكرن قليلاً لادركن ما في ذلك من معنى التحقير لجميع قوامهن ، حتى الانثوية نفسها ، وكفى ان يتقدم اليهنّ رجل بامتداح حسنهنّ ليرفعنهُ زوجاً . وهؤلاء هن اللاتي بعد ان يشترين بالمال والحلى والتملق وقد حتى سكوتهنّ قبول نير العبودية والرضى عنهُ ، ينبرين فجأةً مطالبات بحقوقهنّ مناديات بالاستقلال والتحرير . وانا التي اكتب هذا يشوك الآن ساعدي سوار دار حولهُ فانظر اليهِ واضحك ولا ازيحهُ عني . لقد توارثت النساء حمل القيود حتى عشقنها ، انْ هي لم تثقل حركتهنّ لغرض ما وضمن مكانها ما يشير اليها لغير سبب !

تشكون من زواج هذا العصر وتستصغرون الذي يتزوج البائنة ويقبل صاحبها ثمنها بدلاً من ان يتزوج المرأة ويقبل معها بائنتها . ولكن اتظنونهُ افظع من زواج يؤدي فيهِ الرجل مهراً ؟ إذا ساء شراء المرأة زوجها فكيف يحسن ابتياع الرجل زوجتهُ ؟ الزواج عقد اجتماعي يأتي فيهِ كلا الشريكان برأس مالٍ حسيّ ومعنوي : المال والكفاءة الشخصية : فالمال يجعل المرأة مثيلة الرجل ، والكفاءة الشخصية تؤهلها لان تكون زوجة معتبرة واماً محبوبة . زعمون ، انتم النظريين المتطرفين ، ان صفاتها تكفي لاسعاد رجل نشيط يتكل على جدّهِ واجتهاده . ألا فادخلوا هيكل أسرارَ العائلة وقفوا على ما هنالك من نكد وويلات أصلها فقر عائلة المراة ؛ لا انكر ان الكفاءة الشخصية تفوق المال أهمية وان المال لا يدوم الاّ حيث تكون ، ولكن أواتقون أنتم من ان كلّ واحدةٍ تنصف زوجها ولا تختلس نتاج جهوده لو بعضهُ ؟ ابيّ النفس يخاف ان تستعبدهُ المرأة الغنية ، فهل هو للفقيرة اقلُّ استعباداً ؟ وعلى كلّ فعبيد اليوم كعبيد الامس ليس امامهم للتحرير من سبيل غير ذينك السبيلين القديمين : المال والكفاءة الشخصية

قلبي يحدثني بهياج الخواطر عليّ لجرأتي وحيائها تهوّراً فها أنا اهرب لأنتقل الى سطر جديد

***

هذه هي الخطوط الكبرى في خريطة العبودية التاريخية ، فرغتُ من تعدادها بانشراح من نفذ من تحت جبل ووقف يتمتع بمحاسن الرياض

لقد اتفقوا على ان العبودية كانت وليست بعدُ بكائنة . واظنني كتبتُ منذ هنيهة ان عصرنا يفخر بالغاء متاجرة الانسان بالانسان . وقد استجمعتُ فكري للمرة الاخيرة قبل ان القي بالقلم جانباً فتململتُ في حافظتي جميع معاني الأسى ورأيتُ اشباح الذلّ متجمهرة في رحاب خيالي . كشّرت عن انيابها لتهددني ومدّت مخالبها نحوي لتفترسني . جيش عرمرم من أرواح العبودية والرق أخذ يصفق بأجنحتهِ السوداء صارخاً « نحن أحياء تتألم فكيف تذكرين الموتى وتنسيننا ؟ » فدنوت من جماعة وقلتُ « من انتم ؟ » فصاحوا « نحن نزلاء الليمانات وضحايا الاشغال الشاقة . حجار الصوان تحني ظهورنا وأزيز السياط يمزق أجسامنا .

ما نحن الاّ عبيد اسبارطة » . قلت « وكيف يكفي الاجتماع أبناءهُ شركم ؟ لقد سرتم في وسطهِ فكانت الجرائم منكم بعداد الخطوات » فتنهدوا وقالوا وتنهدهم وكلامهم مقذوفات براكين « ما نحن الاّ عبيد إسبارطة »

وسرت نحو جمع آخر انحنى يشتغل والعرق يقطر من ذرات وجههِ فصرخ « نحن الشعوب المغلوبة وما غرامة الحرب الاّ رق القرون الوسطى » فقلت « وهل من وسيلة اخرى ليستعيض الظافرون عما خسروهُ من مالٍ ورجال ؟ » فهزوا اكتافهم واتحنوا على الارض متظلمين « ما هذا إلاّ رق القرون الوسطى »

وتحولتُ الى جهة اخرى ، والى اخرى ، والى اخرى ، وانّى توجهتُ واجهت أقواماً ينبعث من صدورها التظلم والعويل وتخيم فوقها الاجنحة السوداء . رجال ونساء ، شيوخ واطفال ، مثرون ومعدمون ، عبيد الوراثة ، وعبيد العاهات ، وعبيد الامراض ، وعبيد الجهل ، وعبيد الاوهام ، وعبيد الطمع ، وعبيد الحاجة ، وعبيد الحياء الانساني ، وعبيد الغرور ، وعبيد الكذب ، وعبيد الحسد ، وعبيد الاهل ، وعبيد الابناء ، وعبيد الغرباء ، يزحفون جميعاً من كل ناحية كالجحافل الجرارة وهدير شكواهم كهدير العباب المتلاطم . فصرخت جزعاً « من انتم ، من انتم ؟ » والعبيد ، جميع العبيد ، عبيد الماضي والحاضر والمستقبل ، أجابوا بخوفٍ رهيب « نحن العبودية الدائمة ! » قلت « كلا ، كلا ! لقد ألغيت العبودية وانتم أحرار . ارفعوا ايديكم لاسلاسل فيها ! حركوا أقدامكم لا قيود تثقلها ! » فقالوا « السلاسل والقيود اقل رموز العبودية هولاً . القيود في دمائنا واهلنا واوطاننا . القيود في رغباتنا وحاجاتنا . القيود في بشريتنا » فصرخت بملء صوتي « اقول لكم انتم احرار ولا عبودية في القرن العشرين ! » فقالوا « اذا عبت من العبودية صورةً رسمت اخرى لان اصل العبودية باقٍ على كرّ الدهور . نحن العبودية الدائمة . نحن اودية الحياة المجوّفة عند اقدام الرواسي »

واختفت الجماهير في لحظة فوجدتني مقلباً صحائف هذا المقال وقد وقفتُ أقرأ كلمات الاستهلال « من عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض ... ما اقامت ارتفاعاً الا اوسعت تخومهُ تجويفاً ... »

(يتبع)